عنوان المداخلة: ابن خلدون والثقافة السننية لإعادة بناء فقه السنن الحضارية

إعداد: الدكتور عمار قاسمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
البريد الاليكتروني: a.gasmi@univ-emir.dz
الهاتف: 0660302188

المحور الثاني: جهود الفكر الإسلامي التراثي في فقه السنن الحضارية
الملتقى الوطني الثاني: فقه السنن الحضارية بين التحديات والتطلعات
نظمه قسم أصول الدين ومخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال أفريقيا، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران

الملخص

أهداف البحث: من المحطات البارزة في سيرة العلامة عبد الرحمن ابن خلدون؛ قومته العلمية الكبيرة، حين ساهم في إنضاج علم العُمران البشري، الذي هو علم جامع بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، والعلوم الطبيعية، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بين أن هناك سنن وقوانين ثابتة تحكم الماضين كما تحكم الكون والإنسان والحياة، وإذا كان عمر الإنسان قصير لا يستطيع أن يستوعب كل الأحداث وكل التجارب الحضارية، فإنه بات من الواجب على الإنسان أن يكتشف هذه السنن ويَعْتَبِرَ بها، لتزيده علما وبصيرة بماضيه وواقعه ومستقبله، وهذا بالضبط ما فعله ابن خلدون حين أدرك ضرورة إنضاج هذا العلم استنادا إلى الوعي السنني الذي أرسى دعائمه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأعاد بناء وتوسيع فقه السنن الحضارية من خلال ثقافته السننية التي استلهمها من أحداث التاريخ والتجارب الحضارية والسياسية، ومن تراث المتقدمين الذين سبقوه مثل المسعودي والغزالي والماوردي وغيرهم من علماء الأشاعرة والمؤرخين، ولم يقف عند هذا الحد، بل ميز بوضوح بين السنن التي تمثل المشترك الإنساني والسنن التي نبه إليها الوحي، ولا تُكتشف إلا في ضوئه ولا تفهم إلا في ظلاله، والسنن التي تربط بين هذا المشترك الإنساني وبين السنن التي تفهم في ضوء الوحي.

لهذا فإن هذا البحث يهدف إلى الكشف عن العلاقة الموجودة بين الثقافة السننية وبين إعادة بناء وتوسيع فقه السنن الحضارية.

منهج البحث: استخدم البحث المنهج الاستقرائي والمنهج الفرضي الاستنباطي في قراءة نصوص ابن خلدون لتجلية مختلف السنن بأنواعها والتي أعاد من خلالها بناء وتوسيع فقه السنن الحضارية.

النتائج: أبرز البحث المكانة العلمية والمعرفية والعملية لفقه السنن في بناء وتأسيس علم العُمران البشري عند ابن خلدون، كما بين مجال السنن الكونية التي تمثل المشترك الإنساني ومجال السنن التي لا يدركها إلا المؤمنون بالوحي والغيب، ومجال السنن التي تمثل الرابط بين النوعين السابقين.

كما أبرز البحث مكانة ابن خلدون في استثمار المعرفة والثقافة السننية التي كانت شذرات متناثرة عند سابقيه، وقام باستجلاء بعض السنن التي وظفها ابن خلدون في تاريخ العبر.

أصالة البحث: تظهر أصالة البحث في تعلقه المباشر بتخصص الباحث وهو "العقيدة".

الكلمات المفتاحية: عبد الرحمن ابن خلدون، فقه السنن الحضارية، الثقافة، السننية، العمران البشري.

Ibn Khaldun and Sunni culture to rebuild the jurisprudence of civilization

Reporting by: Dr. Ammar gasmi
Prince Abdul kader University of Islamic Sciences
E-mail: a.gasmi@univ-emir.dz
Phone: 0660302188

Summary

Research objectives: One of the highlights of the biography of The Mark Abde-el Rahman Ibn Khaldoun was his great scientific foundation when he founded the science of human urbanization, which is a science combined between Islamic sciences, social sciences and humanities, and natural sciences, if God almighty has shown that there are laws and fixed laws governing the past as it governs the universe, man and life, and if the age of man is short can not absorb all events and all civilizational experiences, then it is the duty of man to discover these The tooth is considered to increase it to increase knowledge and insight into its past, reality and future, and this is exactly what Ibn Khaldoun realized when he founded this science based on the Sunni consciousness that inspired him from the Holy Quran and the Prophet's Sunnah, he reconstructed and expanded the jurisprudence of civilizational teeth through his Sunni culture, which was inspired by the events of history and political experiences, and did not stop there, but clearly distinguished between the teeth that represent the human common and the years to which revelation was alerted and discovered only in its light and understood only in its shadows, and the years that link this human common with the teeth understood in the light of revelation.

This research therefore aims to reveal the relationship between Sunni culture and the reconstruction and expansion of the jurisprudence of civilizational years according to stories or the jurisprudence of history.

Research method: The research used the method of extrapolating hypothesis in reading ibn Khaldoun's texts to manifest the different years of all kinds, through which he rebuilt and expanded the jurisprudence of civilizational years.

Results: The research highlighted the scientific, cognitive and practical place of sunni jurisprudence in the construction and establishment of the science of human urbanization at Ibn Khaldoun, as well as between the field of cosmic teeth that represent the human common and the field of teeth that only believers in revelation and the unseen realize, and the teeth that represent the link between the two previous species.

The research also highlighted Ibn Khaldoun's place in investing Sunni knowledge and culture, which were scattered nuggets among his predecessors, and explored some of the years employed by Ibn Khaldoun in the history of lessons.

Authenticity of the research: The authenticity of the research appears in its direct attachment to the researcher's specialization, namely "creed."

Keywords: Abde -el Rahman Ibn Khaldoun, Cultural Jurisprudence, Culture, Sunni, Human Urbanization.

مقدمة

حين خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وتركه حينا من الدهر هيكل من الفخار لم يكن شيئا مذكورا، ثم عقد له احتفالا ومهرجانا عظيما في الملأ الأعلى بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء، وأمر الملائكة أن يسجدوا له تكريما لما خصه من النعم، خاصة نعمة العقل.

ولما كان عمر الإنسان قصير لا يستطيع أن يستوعب التغيرات الكبرى وأحداث التاريخ بمختلف تفصيلاتها وتعقيداتها، جعل الله سننا ثابتة تحكم هذا الماضي في سيرورته وصيرورته، بل وسننا ثابتة تحكم الكون والإنسان والحياة، تسهل على الإنسان أداء مهمته ورسالته في هذا الكون.

لهذا كان الإنسان مطالب باستكشاف هذه السنن واستجلائها بالنظر والتدبر والتفكر والتأمل.. في الماضي ليتعلم منه ويستفيد من خبرة الماضين حتى يحسن التصرف في واقعه ويستطيع أن يستشرف مستقبله، وفي الكون الذي سخره ويسّره له حتى يعرف سبل استثماره فيما يرضي الله ويحقق سعادته في الدارين، وكذلك في الحياة والإنسان.. فكانت بذلك السنن أصناف منها ما هو بمثابة مشترك إنساني أوتي الإنسان من النعم والقدرة لمعرفته واكتشافه، ومنها ما كان مرتبطا بالوحي بشكل جزئي ومنها ما هو مرتبط بالوحي بشكل كلي لا يمكن للإنسان أن يكتشفه أو يصل إليه إلا إذا آمن بهذا الوحي وحاول أن ينضبط بشرائعه.

1-فقه السنن الحضارية منهج لتفعيل مقاصد العقائد

الغيب غيبان: غيب غائب عنا لا نعرف عنه شيئا ولم يصلنا عنه شيئا يؤكد وجوده من عدمه، وهذا الغيب لا يهمنا لأنه لا يمت بأي صلة لحياتنا ولا ينفعنا في آخرتنا.

وغيب غائب عنا، عمد الإسلام إلى إخبارنا به لما له من أهمية وصلة وثيقة بحياتنا، ويبقى غيب لأنه لا قبل لنا بالعلم به على وجه الحقيقة، ومعجزة الإسلام تكمن في أنه أخبر عنه بطريقة يدركها الفهم ويعقلها العقل وذلك لأنه حشد للإقناع به كل المؤثرات: التاريخية والقصصية والخاصة بالفطرة الإنسانية والكونية..

فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة لم يشغل الناس بقضايا أركان الإيمان ركنا، ركنا في تعريفات تجريدية ولا تحديدات منطقية صورية ولا تشقيقات لفظية وإنما انخرط في حياتهم العملية ليسير بعلمهم وعملهم رويدا رويدا حتى تستقيم وتصلح حياتهم، وقد نبه مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية إلى ضرورة النظر في نزول القرآن منجما.

فمبنى الدرس العقدي في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة لا يهتم بالكشف عن علة الحكم لتعديها إلى حادثة جديدة كما هو الحال بالنسبة للدرس الفقهي، وإنما يهتم بإحالة نظر الإنسان إلى سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.. من أجل اكتساب العقيدة الصحيحة وزيادة قوة الإيمان وتجديده، وهذا يعني أن الدرس العقدي مرتبط من حيث التعليل والقصد بالسنن الكونية الكبرى وبطريقة بناء الكون وحركة التاريخ وبناء المثل وأبعاد الإنسان.

فالمنظور السنني الشامل كما تصوره الطيب برغوث، معلم أساسي من معالم النظام العقدي في الإسلام، لأنه هو الذي يولد منهج الكشف عن مقاصد العقائد، وبمعرفة المقاصد تنتج العقائد أحوالا والأحوال بدورها تنتج أقوالا وأفعالا فتُكتسب العقيدة الصحيحة ويتجدد ويتقوى الإيمان وتصلح الحياة، فالتقصيد هو التعليل والتعليل هو الكشف عن الأسباب والأسباب لا يمكن فهمها إلا في مجالها السنني.

والشريعة هي أوامر ونواهي وأقوال وأفعال، بمعرفة أسرارها ومقاصدها تنتج أحوالا والأحوال تعضد الاعتقادات الصحيحة وتقوي الإيمان وتجدده، فرغم التعاكس في الاتجاه إلا أن العلاقة بين مقاصد العقائد ومقاصد الشريعة علاقة تكامل، فمقاصد العقائد تعيد للشريعة حيويتها، ومقاصد الشريعة تعيد للعقيدة فعاليتها، -لهذا كتب الغزالي إحياء علوم الدين-، وأحكام الشريعة تحقق مقاصد العقيدة، وأحكام العقيدة هي بمثابة المقاصد للشريعة.

فمقاصد العقائد الإسلامية تنبع من طبيعة العقيدة الإسلامية التي تجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ومقاصد الشريعة الإسلامية تنبع من طبيعة الشريعة التي تختلف عن العقيدة اختلاف تمييز.

ظهر مصطلح المقاصد لأول مرة –فيما هو محقق من التراث-، في كتاب أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم: (الصلاة ومقاصدها)[1]، في القرن الثالث للهجرة، فقد اعتنى بالمقاصد من خلال الكشف عن مقاصد المفاهيم والألفاظ خاصة التي استخدمها المتصوفة، في كتابيه (الفروق ومنع الترادف) و(معرفة الأسرار).

فالعقل جليل لكن الإيمان أجل منه، والصديقية التي هي الجمع بين العقل والإيمان أجل من الإيمان، والحديث أجل من الصديقية، والنبوة أجل من الحديث والرسالة أجل من النبوة[2].

ثم تواردت الألفاظ والمصطلحات في الكتابات المصنفة بعد هذا القرن، مثل كتاب: (محاسن الشريعة) صُنف في بداية القرن الرابع للقفال الشاشي الكبير الذي أخذ من أهل السنة والجماعة عقيدته ومن الشافعي مذهبه الفقهي، هذا المصنف الذي جاء كرد عن سؤال العلل والأحكام، وهو كتاب فريد من نوعه "أظهر فيه محاسن كل حكم من أحكام الشريعة على المعنى الذي تقتضيه ألفاظه العربية التي ورد بها

1-الترمذي محمد بن علي. الصلاة ومقاصدها، تحقيق: حسين نصر زيدان، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1965م.

2-الترمذي محمد بن علي. كتاب معرفة الأسرار، تحقيق: محمد إبراهيم الجيوش، القاهرة: دار النهضة العربية، (د ط، دت)، ص(50-38).

الشرع من غير أن يحمل اللفظ معنى لا يحتمله"[1]، وهذا كان صَدًّا لأهل الباطن كالإسماعيلية وأهل الظاهر كالمعتزلة.

وفي القرن الرابع ذاته عبر أبو الحسن العامري عن المقاصد بلفظ "المناقب" في كتابه: (الإعلام بمناقب الإسلام)[2].

وجمع أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه القمي المعروف بالشيخ صدوق روايات أئمة الشيعة التي يعللون فيها وجود الألفاظ والأسماء والأفعال والصفات والعادات والأحكام الشرعية الكلية أحيانا والجزئية في أكثر الأحيان وذلك في مختلف الأبواب الفقهية وغير الفقهية في كتاب أطلق عليه: (علل الشرائع)، يقول في مستهل الباب الأول مثلا: "العلة التي من أجلها سُمّيت السماء سماء والدنيا دنيا والآخرة آخرة، والعلة التي سمي من أجلها آدم، آدم... والعلة التي من أجلها قيل للفرس أجد وللبغلة عد..."[3]، إلا أن هذه الروايات رغم ثرائها إلا أنها تحتاج إلى الصحة العلمية خاصة من حيث السند واتصاله ومن حيث المضامين المعرفية لمتن هذه الروايات.

ورغم النقائص التي تتخلل مصنفات هذا القرن إلا أنها ذات أهمية كبيرة للمرحلة اللاحقة في تاريخ المقاصد، لأنها بمثابة التمهيد للمرحلة التأسيسية، مما جعل أحمد الريسوني يؤكد أنه، بالرغم من الاهتمام الواسع بمعرفة علل الشريعة ومقاصدها في القرن الرابع، إلا أن "الطابع الجزئي التفصيلي العفوي يبدو غالبا على كتابات هذه المرحلة، ولكنها مهدت لمرحلة النظر المقاصدي المعمق المعتمد على المنهج التركيبي وعلى الاستقراءات العامة المفضية إلى تقرير الكليات والنظريات وهو المنحى الذي بلغ أشده مع الإمام الجويني"[4].

وفي القرن الخامس جعل إمام الحرمين الجويني المقاصد على رأس منهج الخوض في أي علم من العلوم أو فن من الفنون[5]، ثم جعل منها أساسا وميزانا نظريا لتمييز مراتب المصالح ومعرفة ما يقدم وما يؤخر، وما يُعتبر فيه الترخيص وما لا يعتبر... وما يترتب على ذلك من قواعد وتطبيقات أصولية وفقهية، حين صنف العلل والمقاصد الشرعية إلى ضروري يجب الحفاظ عليه وحاجي يوفر متطلبات الإنسان وتحسيني بمثابة متمم لهذه الحاجيات[6] فبعد أن قدم آراء العلماء ونماذج عملية من تعليلاتهم، عرض تقسيمه الخماسي الغير مسبوق، الذي اختصره إلى تقسيم ثلاثي

1-القفال الشاشي الكبير. محاسن الشريعة، تحقيق كمال علتو العروسي، م ع السعودية، مطبوعات جامعة أم القرى، (ط ح، 1412ه-1992م)، ص70.

2-أبو الحسن العامري. كتاب الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: أحمد عبد الحميد غراب، الرياض: مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، (ط1، 1408ه-1988م)، ص80.

3-الشيخ صدوق. علل الشرائع، بيروت: دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1427ه-2006م)، ص9.

4-أحمد الريسوني. من أعلام الفكر المقاصدي، بيروت: دار الهادي للنشر والتوزيع، (ط1، 1424ه-2003م)، ص12.

5- الجويني أبو المعالي عبد المالك بن عبد الله. البرهان في أصول الفقه، ج1، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر: د د ط، (ط1، 1399ه)، ص83.

6- ينظر:- الجويني أبو المعالي عبد المالك بن عبد الله. البرهان في أصول الفقه، ج2، المصدر نفسه، ص(926-923).

يتضمن (الضروريات والحاجيات والتحسينيات) والذي أصبح من أسس الكلام في المقاصد بعده، ولم يقف عند هذا الحد بل نبه إلى الضروريات الخمس (الدين والنفس والنسل والعقل والمال) التي استقرت على هذا النحو مع الإمام الغزالي وأصبحت أساسا نظريا من أسس الكلام في مقاصد الشريعة.

وبهذا يكون عمل الإمام الجويني في المقاصد عملا تأسيسيا يحتل الريادة في إرساء القواعد النظرية وابتكار المصطلحات الأساسية وضبطها وترويضها وتنزيلها على مختلف الأحكام الشرعية للكشف عن الحِكم والمقاصد التي تكمن فيها.

ثم جاء تلميذه أبو حامد الغزالي ليراجع تصنيف أستاذه ويقوم بتأصيل قضية المقاصد من خلال تنظيمها في مستويات، محاولا تسهيل تفعيلها، واعتبر المقاصد بمستوياتها الثلاثة: الضروريات والحاجيات والتحسينيات من المصالح المرسلة[1]، فالغزالي وضع شروط ثلاثة للمصلحة؛ فهي ضرورية لا حاجية ولا تحسينية وكلية لا جزئية وقطعية لا ظنية، فهو توسع في المقاصد حين تجاوز حكم العقل المجرد واعتبره ضابطا ناقصا في تعرّف المصالح، إذ به تتحول إلى أهواء ألبستها العادات والتقاليد ثوب المصالح، وجعل المقاصد الشرعية شرطا ضروريا في اعتبار المصلحة.

ثم جاء العز بن عبد السلام ثم نجم الدين الطوفي وابن خلدون ثم الشاطبي الذي اقتربت معه المقاصد من النضج خاصة في كتابه "الموافقات".

وبدأ الاهتمام بالمقاصد في الحقبة المعاصرة بمناقشات جمال الدين الأفغاني وفقه السنن عند الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، ثم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ثم عبد الله دراز خاصة في كتابه "النبأ العظيم"، ثم مالك بن نبي في الظاهرة القرآنية، ثم أكد على أهمية وضرورة المقاصد في العقائد كل من الشيخ يوسف القرضاوي والشيخ محمد الغزالي، وكشفا عن مناهج تساعد الباحثين على تفعيل المقاصد منها منهج فقه السنن الحضارية.

2- تفعيل فقه السنن الحضارية بتأسيس فلسفة التاريخ

تبدأ المعادلة الحضارية حين يدرك الإنسان أن فقه السنن الحضارية لا يحصل إلا بفقه سنن العُمران البشري، وفقه سنن العمران البشري لا يحصل إلا بفقه سنن الـمُـلك، إضافة إلى فقه السنن الكونية الذي يمثل المشترك الإنساني، لهذا لا يمكن فهم ابن خلدون إلا بالنظر إلى أسلافه مثل؛ المسعودي والغزالي أبو حامد والأشاعرة عموما، ولاحقيه مثل ابن الأزرق الأندلسي، ومحمد الحسني الإدريسي العمراني اللجائي، ومحمد بن محمد العلاف السفياني، والأمغطي العبدلاري وغيرهم كثير وخاصة أبو القاسم بن رضوان في كتابه "الشهب اللامعة في السياسة النافعة".

ورغم أن هناك الكثير من علامات الاستفهام التي طرحها ابن الأزرق عن ابن خلدون منها؛ عدم تحليه بالأمانة العلمية؛ حيث نسب الكثير من الأحكام والنظريات العلمية إلى نفسه مثل؛ نظرية العصبية ونظرية الدورات التاريخية رغم

1- أبو حامد الغزالي. المستصفى في علم الأصول، تحقيق: أحمد زكي حماد، السعودية: دار الميمان للنشر والتوزيع، (دط، دت)، ص328.

أنه أخذها من غيره. كذلك تكتُّمه عن المصادر التي أخذ منها[1]. ورغم أنه لم يكن واعيا بما فيه الكفاية -مثل ابن الأزرق- بالمنهج الاستقرائي التاريخي الذي أخذه من الأشاعرة، ورغم كل ما قيل عن ابن خلدون، إلا أنه يعتبر مؤسس فلسفة التاريخ التي تمثل علما أساسيا لتفعيل فقه السنن الحضارية.

يقول ابن خلدون: "إذ هو (فن التاريخ) في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول تنمي فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال.

وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق"[2]. كان الشعر عند العرب الوسيلة الغالبة لتدوين التاريخ، إلى أن جاء البيروني واستخدم النثر في اغلب كتاباته التاريخية، وعموما، فإن التاريخ بالرغم من استقلاله المنهجي الذي شهده مع البيروني، إلا أنه كان يعد من بين الفنون الأدبية مثل الشعر والأغاني، التي هي قص للأيام يغلب عليها الخيال الذي ليس له موضوع معين لذلك تساوى فيه العلماء والجُهَّال. وهذا هو ظاهر التاريخ الذي يعنيه ابن خلدون، من حيث أنه فن من الفنون الأدبية.

أما باطن التاريخ فهو من جنس فلسفي، يتجاوز ظاهر الأحداث لينفذ إلى أعماقها، ويقوم بتفسيرها وتعليلها وتحديد علاقتها بأحوال العمران البشري، واستنباط القوانين التي تتحكم في حركتها. فأصبح علم التاريخ يقوم على جانين؛ أحدهما ظاهري يتمثل في رواية الحادثة التاريخية كما هي في الواقع. والثاني باطني يقوم بالبحث عن أسبابها، والكشف عن السنن والقوانين الكلية التي تحكم حركة سيرها.

أما كيف تأسس فن فلسفة التاريخ؟ فقد استفاد ابن خلدون أعمال فلوروس والعلماء الذين سبقوه سواء كانوا عربا أو عجما أو بربرا كما استفاد من تراث الأشاعرة خاصة المسعودي والغزالي، علاوة على ذلك استفاد من ابن تيمية الذي انتقد علم الكلام ونقله إلى الكلام في العلم. فزوده بالنظرة العلمية التي قادته إلى التمييز بين حالة البداوة التي يحكمها القانون الطبيعي، وحالة الحضارة التي يحكمها القانون التاريخي، فأدرك بذلك أن الحادثة التاريخية والتاريخ عموما، له جانبين –كما سلف- جانب ظاهري هو الرواية، وجانب باطني هو القانون والسنن، لهذا اعتُبر مؤسس فلسفة التاريخ بلا منازع[3].

3- نظرة ابن خلدون لتراث أسلافه (الخطأ في كتابة التاريخ): استبعد ابن خلدون الكثير من روايات أسلافه من المؤرخين أمثال؛ ابن اسحق والواقدي، وابن

1- ينظر:- أبو عبد الله ابن الأزرق. بدائع السلك في طبائع الملك، ج1، تحقيق: علي سامي النشار، القاهرة: درا السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، (ط1، 1429ه-2008م)، ص21-41.

2- عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، طبعة على نفقة ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق الهدى، المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر، القاهرة، 1930م، ص2، 3.

3- زعم البعض أن ابن حزم الظاهري هو السباق إلى إبداع هذا العلم (فلسفة التاريخ)، لكننا لم نجد في هذا الزعم الحجج العلمية الكافية التي تؤكده.

هشام وابن الحكم والبلاذري والدينوري والطبري والمسعودي بحجة "أن فحول المؤرخين في الإسلام، قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل ووهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب في الغالب كليل، والغلط والوهم نسبي للأخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل..."[1] كما أنهم اعتمدوا فيها "على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط"[2]. وعلى ضوء هذه الاتهامات أرجع أبن خلدون المغالطات التي وقع فيها المؤرخون إلى الأسباب التالية:

أ-التشيع للآراء والمذاهب: في هذا يقول "فإن النفس إذا كانت على حال اعتدال من قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله".

ب- الثقة المفرطة في الناقلين والرواة: وذلك دون التثبت من رواياتهم وفق معايير منهج الجرح والتعديل.

ج- الذهول عن المقاصد: ويقصد به ابن خلدون أن يكون الناقل صادقاً في روايته لكن "لا يعرف القصد بما عاين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب".

د- الجهل بطبائع العُمران: "فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السامع يلم بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر وعلى تمييز الصدق والكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض".

إذن فالنقد الذي وجهه ابن خلدون لأسلافه رغم أنه يبدو في الظاهر نقدا منهجيا يوحي ببناء منهج جديد يقوم على ثقافة سننية استمدها من القرآن الكريم، فنقل التاريخ من النظرة الضيقة إلى الرؤية الشاملة، ومن الرواية إلى الدراية، ومن الاقتصار على سرد الأخبار إلى تعليلها واستنباط القوانين التي تفسر حركة التاريخ[3]، لكن في حقيقة الأمر أن هذا النقد فيه تكتم وعدم تصريح بما استعاره من منهجية وبما أخذه عنهم من نظريات وأحكام خاصة المسعودي والغزالي والأشاعرة وحتى بعض المؤرخين القدماء مثل فلوروس البربري.

1- ابن خلدون: المقدمة، م س، ص3.

2- ابن خلدون: م ن، ص7.

3- راجع:- المصدر نفسه، ص29. ستجد النص الذي يدل على هذه المآخذ.

فقد رسخ في أذهاننا أن ابن خلدون يشكل قطيعة معرفية في البحث التاريخي والسنني والمقاصدي، نتيجة ما روُّج له، لكن الحقيقة غير ذلك، فهو يمثل حلقة متصلة بما سبقه وما لحقه في البحث التاريخي وفي فقه السنن الحضارية وفقه سنن العمران البشري وفقه سنن الملك.

4- الثقافة السننية وإعادة بناء فقه السنن الحضارية: يعيب الكثير من الباحثين على ابن خلدون عدم استناده لآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ρ، في استدلالاته، وتحليلاته وتعليلاته التاريخية وبناياته النظرية، إلى درجة أن اتهمه البعض بعدم شرعية النتائج التي توصل إليها، وبلغ النقد بالبعض إلى درجة الإسقاط؛ فقد اعتمد محمد عابد الجابري لوصف المقدمة، عبارة (مكسيم رودينسون) التي وصف فيها تراث كارل ماركس في قوله: "ليس الشيطان وحده هو الذي يستطيع أن يجد في المقدمة، ما يرضيه أو يسخطه، بل أن المؤمن والملحد، والكاهن والمشعوذ، والفيلسوف والمؤرخ، ورجل الاقتصاد وعالم الاجتماع، وحتى كارل ماركس نفسه... كل أولئك يستطيعون أن يجدوا في "المقدمة" ما به يبررون أي نوع من التأويل يقترحونه لأفكار ابن خلدون"[1]. وليس هذا فقط، بل أن رؤيته للمقدمة بمنظار "رودينسون"، جعلته يصل إلى نتائج تحاول هدم عقيدة التوحيد، فكيف لا وقد اعتبر القرآن كتاب تاريخ، حيث قال: "على أن القرآن نفسه في معنى من المعاني كتاب تاريخ، فعلاوة على أنه حفظ للمسلمين كثيرا من تفاصيل الواقع التي شهدها عصر النبي، فهو يتضمن كثيرا من أخبار الأمم الماضية منذ الخليقة إلى بعثة الرسول وذلك إما على شكل إشارات مقتضبة أو على شكل قصص تاريخي مفصل"[2].

والحقيقة أن ابن خلدون وإن كان لا يستدل بآيات القرآن الكريم كثيرا، فإنه متشبع بثقافة سننية، شكلت فقها خلدونيا عمرانيا لما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حول تداول الأيام بين الناس، وحول أثر الظلم والترف والكفر بأنعم الله في سقوط الدول والحضارات، قال تعالى: (**إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس**) (سورة آل عمران، الآية140) وقال أيضا: (**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**) (سورة يونس، الآية49)، وقال أيضا: (**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**) (سورة النحل، الآية112). وقال أيضا: (**قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاص قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**) (سورة الأعراف، الآية129). وقال أيضا: (**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**) (سورة القصص، الآية59). فمثل هذه الآيات نلمسها في ثنايا النص الخلدوني وفي تحليلاته واستنتاجاته، مما

1- محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة الوحدة العربية، بيروت، 1994م، ص8.

2- نفسه، ص90.

يعني أنه على وعي تام بها وبالقصص القرآني والعبر المستخلصة منها، سواء في جانب الالتزام بالشريعة وما ينتج عنه من ثمار الإيمان؛ كالرخاء والنصر وغيرها. أم في جانب البعد عن الشريعة والكفر بأنعم الله وما يتمخض عنه من عواقب وخيمة، نهايتها اضمحلال الحضارة وتدميرها. كما أن استشهاداته واقتباساته من السيرة النبوية العطرة وقياساته عليها، توحي بأنه على وعي تام بها في شؤون الحياة كلها، فكيف لا وهو يجعل من الرسولρ ومن الدولة التي أقامها، الأسوة الحسنة والقدوة التي يجب على البشرية كلها أن تمتثل به، وتسير على منهجه. وإذا كان الشيخ الطيب برغوث حفظه الله يؤكد على عدم نضوج الوعي السنني عند علمائنا الأوائل، حيث قال: "فالوعي السنني بما هو استيعاب معرفي ومنهجي وتسخيري أو وظيفي متكامل.. للسنن الإلهية الفاعلة في الصيرورات الحضارية لحركة التاريخ، ظل يعاني في منظومتنا الثقافية من الجزئية والحدية والتنافرية والذاتية والاستئنافية والاستلابية المزدوجة.. ولم تتح له بشكل واسع ودائم، إمكانية التكامل والمراجعة والاستدراك والتجدد والتراكم.. الذي يبني ويعمق لدى الصفوة والمجتمع معا.. الإحساس بسلطان السنن الإلهية وهيمنتها المطلقة على الحياة البشرية، بلا محاباة لأحد، أو تحيز ضد أحد، فيتعزز الاهتمام بالثقافة السننية، بحثا واكتشافا وتوطينا من جهة، كما تتعزز الخبرات التسخيرية أو الاستثمارية بشكل فعال من جهة أخرى"[1]. فإن السؤال المطروح: هل تفطن علماؤنا الأوائل لهذه السنن الإلهية وتثقفوا بها وجسدوها في تحليلاتهم وتنظيراتهم ورؤاهم الواقعية؟ وهل استطاعوا أن يؤسسوا علما خاصا بذلك؟ أم أنهم اكتفوا فقط بالوعي بها؟ أم أنهم لم يتفطنوا لها إطلاقا؟ وهل هناك فرق بين سنن الآفاق والأنفس وآيات الآفاق والأنفس؟. أي بين السنن والآيات؟ لا شك أن هذه الأسئلة وغيرها تحيل إلى بحث معمق في ثنايا المقدمة وغيرها من التراث، لاكتشاف مؤشرات المنهج الخلدوني في بناء فقه السنن الحضارية وفقه سنن الملك وفقه سنن العمران البشري، هذا الأخير الذي يُعتقد أنه مؤسس على سنن واضحة وقوانين راسخة، تشبه إلى حد كبير القوانين الطبيعية التي تتحكم في حركة المادة. فكيف لا وأبواب المقدمة وفصولها عبارة عن تقريرات سننية دقيقة جدا، بمثابة قوانين يمكن الوقوف عند بعضها فيما يلي:

أ- سنّة "ميلاد الأمم العظيمة أصله الدين": يقول عبد الرحمن ابن خلدون: "أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق؛ وذلك لأنّ الملك إنّما يحصل بالتّغلّب والتّغلّب إنّما يكون بالعصبيّة واتّفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنّما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى: **(لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)** (الأنفال:63)؛ وسرّه أنّ القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدّنيا حصل التّنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحقّ ورفضت الدّنيا والباطل وأقبلت على الله اتّحدت وجهتها فذهب التّنافس وقلّ الخلاف وحسن التّعاون والتّعاضد واتّسع نطاق الكلمة لذلك

1- الطيب برغوث: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية (قراءة في سنن التغيير الاجتماعي) سلسلة: آفاق في الوعي السنني، ط1، دار قرطبة، الجزائر، 2004م، ص21-22.

فعظمت الدّولة كما نبيّن لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبه التّوفيق لا ربّ سواه"[1].

فهذه سنة ثابتة لا تتبدل ولا تتحول وتقوم على الوعي بفقه سنن الملك والوعي بفقه سنن العُمران البشري، والوعي بفقه السنن الحضارية؛ فالملك لا يكون إلا بالتغلب والتغلب لا يكون إلا بالعصبية والعصبية لا تكون قوية إلا بوحدة الغاية والهدف وتراص الصفوف ووحدة الشعور وهذا لا يكون إلا بالتأليف بين القلوب والتأليف بين القلوب لا يكون إلا بالاعتصام بحبل الله المتين، فكلما عبد الناس الله حق عبادته اقتربوا منه وعرفوه، وإذا عرفوه سعوا إلى نصر كلمته وجعلها هي الكلمة العليا، فإذا استماتوا في نصر هذه الكلمة نصرهم الله بالضرورة فكان لهم الصلاح وبالتالي الغلبة والملك، وكلما اضطربت العبادة وقل الاعتصام بالله، بدأ الميل إلى الدنيا والتمسك بها، فيكون التنافس، والتنافس يؤدي إلى الاختلاف، والاختلاف يؤدي إلى التنازع والتناحر والتقاتل والتشتت، وهذا كله يؤدي إلى فشل الأمة وذهاب ريحها، فيتم إذلالها واستعبادها وإهانتها واستلابها واستغلالها شر استغلال، لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((**إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله**))[2].

ب-سنة "اهتداء الإنسان إلى الحق يكون بالتأمل في خَلقه": إن الاجتماع الإنساني ضروري وبيان ذلك: "أنّ الله سبحانه خلق الإنسان وركّبه على صورة لا يصحّ حياتها وبقاؤها إلّا بالغذاء وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركّب فيه من القدرة على تحصيله إلّا أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادّة حياته منه ولو فرضنا منه أقلّ ما يمكن فرضه (...) فإذن هذا الاجتماع ضروريّ للنّوع الإنسانيّ وإلّا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم وهذا هو معنى العمران الّذي جعلناه موضوعا لهذا العلم (...) ثمّ إنّ هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرّرناه وتمّ عمران العالم بهم فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانيّة من العدوان والظّلم وليست السّلاح الّتي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنّها موجودة لجميعهم فلا بدّ من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسّلطان واليد القاهرة حتّى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك"[3].

من هذا النص يمكن أن نستنتج نوعين من الهداية؛ هداية فطرة وغريزة وهداية فكرة وسياسة، وثلاثة أنواع من فقه السنن؛ فقه سنن الملك، وفقه سنن العمران البشري، وفقه السنن الحضارية.

أولا: الهدايتين.

1- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص131-132.

2- المستدرك على الصحيحين. كتاب الإيمان، قصة خروج عمر إلى الشام وقوله: إنا قوم...، رقم 214، ص237.

3- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص131-132.

1-هداية الفطرة والغريزة: وهي التي تتعلق بالغذاء والتكاثر وكل ما يتعلق بالأشياء البيولوجية، ويشترك في هذه الهداية الإنسان والحيوان، فهي المصدر الأول للاجتماع لهذا قيل: "الإنسان اجتماعي بطبعه"، إلا أن الإنسان لا يقتصر على الفطرة والغريزة في تحصيله لمتطلباته البيولوجية، وإنما يستعين بهداية الفكر والسياسة، في اختراع الآلات وإنشاء المصانع وطرق الحفظ والتخزين ليزيد في إنتاجه حتى لا يقتصر على حاجياته اليومية، وإنما يتعدى ليخزن احتياطات تكفيه لشهور وسنوات استعدادا للطوارئ والكوارث والتغيرات...إلخ، كما يستعين بتدبر وتأمل الكون والآفاق لاكتشاف سننه التي تسهل عليه مهمة التحكم في الطبيعة واستثمار خيراتها بشكل صحيح، وبعض سنن الأنفس حتى يسوس هذه الخيرات سياسة صحيحة رشيدة.

2-هداية الفكرة والسياسة: وتكون هذه الهداية بالتدبر والتفكر والتأمل بواسطة العقل لاستجلاء ما تبقى من سنن الأنفس والآفاق وسنن الهداية والتأييد لاستكمال تدبير شؤون العُمران البشري، وحصول فقه السنن الحضارية وفقه سنن الملك بعد الانضباط بالشريعة والاسترشاد بالعقيدة، لبلوغ عالمية الرسالة الإسلامية وانتشار البركة والرحمة والتآخي والتآلف بين الآدميين.

فحين يتأمل الإنسان خَلْقَهُ يجد أن الله سبحانه وتعالى خصه بحسن التركيب والتقويم، وأولاه عناية خاصة لأنه مخلوق مُكَرّمٌ، له عند الله شأنا عظيما وله في نظام الكون وزنا عجيبا، فهو أعقد مخلوق في الكون من حيث الأعضاء والأجهزة والأنسجة والخلايا، وهو أدق وأجمل مخلوق من حيث الإتقان والصنع، وتدبر عمل الأعضاء وأجهزة الجسم في تناسقها وانسجامها وتراصها يقود إلى استجلاء سنن العُمران البشري.

ففي هذا الإنسان رأس يعلوه بمثابة مركز تحكم وتسيير أودع فيه الله عقْلٌ يتضمن من المبادئ والمسلمات والقوى الإدراكية ما يؤهله ليكون سيد المخلوقات وأفضلها، والتأمل في خلق هذا الرأس وعمله، يُوصِل إلى استكشاف واستجلاء سنن المُلك والتحكم والتسيير والضبط في دقة متناهية.

وفي هذا الإنسان أيضا نفس تعتلج فيها المشاعر والعواطف، وتصطرع فيها الشهوات والقيم والحاجات والمبادئ، وفيها أجهزة مناعة تبدأ من الجلد الذي هو درع سابغ على البدن يمنعه من دخول الجراثيم والأوبئة، ثم خص المولى عز وجل كل عضو وكل حاسة بجهاز دفاع خاص بها، وأما خط الدفاع الثالث فهو جهاز المناعة الكامن في الدم، وبتدبر هذه الأشياء وغيرها يصل الإنسان إلى استجلاء السنن الحضارية، فيحصل له التفقه بالأنواع الثلاثة من السنن التي اهتدى إليها من خلال التأمل في خلقه وهذا مصداقا لقوله تعالى: **(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)** (طه:50)، وقوله: **(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)** (الشعراء:78).

ج-سنة الأسباب: قال الله تعالى: **(ويسألونك عن ذي القرنين، قل سأتلو عليكم منه ذكرا، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا، فأتبع سببا)** (سورة الكهف، الآيات83،84،85). أدرك ابن خلدون بأن وقائع العُمران البشري تنضبط بمجموعة من السنن الثابتة التي تحكم مسار حركتها، وفق علاقة تفاعلية بين

السبب والمسبب. والبحث في السبب هو الذي يكشف عن تجليات السنة وفاعليتها في البناء الحضاري.

د- سنة التشابه: قال الله تعالى: **(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها)** (سورة العراف، الآية189)، وقال أيضا : **(يا أيها الناس أتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا)** (سورة النساء، الآية1)، أدرك ابن خلدون أن هناك سنة تشابه، تسهم سلبا أو إيجابا في صياغة أحداث التاريخ، يحكمها سببين؛ أحدهما يتمثل في وحدة النعم البشرية (السمع والبصر والفؤاد والعقل..). وثانيهما يتمثل في التقليد الذي جبل عليه الناس؛ فالمغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب، والخلف مجبول على تقليد السلف دون روية أو تمحيص.

ه- سنة التباين والاختلاف: قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ% وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)** (سورة فاطر، الآيات27،28)، أدرك ابن خلدون بعمق فكره أهمية سنة الاختلاف، ومن خلالها أدرك بأن هناك فروق بين الأفراد والجماعات حيث يقول: "أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول: سنة الله التي خلت في عباده". ولم يقف عند هذا الحد، بل اكتشف العلاقة الجدلية بين سنة التشابه وسنة الاختلاف والتباين، إذ أن التباين يدفع إلى التشابه، ثم تفضي محاولات تكرار التشابه نفسها إلى التباين، حيث يقول: " أهل الملك والسلطان إذ استولوا على الدولة والأمر فلا بد أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك. فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم و عوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء، وكانت للأولى أشد مخالفة. ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة". وتوجد عوامل أخرى إلى جانب هذه السنن، ينضبط بها العمران البشري، مما يجعلها فاعلة في تحديد مسار حركة التاريخ، ومن بين هذه العوامل ما يلي:

أولا-العامل الديني: يبدوا البعد الغيبي في ثنايا المقدمة وكتاب العبر أكثر وضوحا وجلاء من غيره، فالإنسان هو محور أحداث العمران البشري، وهو الفاعل الأساسي في حركة التاريخ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أشرف على خلقه بنفسه، ونفخ فيه من روحه وجعله خليفة في الأرض وحمله الأمانة، وكلما كان أكثر تمسكا بها وأكثر تدينا، كان أكثر فاعلية وحضورا على مسرح أحداث التاريخ. ويرى ابن خلدون أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية، من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة: "والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض؛ للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما

تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسَهُل انقيادهم واجتماعهم"[1].

ثانيا: العامل الجغرافي: تأثر ابن خلدون في رؤيته الجغرافية بما كان سائدا في عصره، من أفكار الفلسفة اليونانية، وأفكار المؤرخين المسلمين السابقين له، ورغم أن علم الجغرافيا لم يكن ناضجا بالقدر الكافي وما زالت تتخلله الكثير من الأخطاء، انتقلت إلى ابن خلدون ذاته، إلا أنه أدرك بعمق أهمية العامل الجغرافي في تحديد شكل العمران البشري، وتعيين مسار حركة التاريخ، فالموقع الجغرافي وطبيعة الأرض ودرجة خصوبتها ونوعية المحاصيل التي تنتجها وطبيعة المناخ، كلها عوامل تدخل في تحديد صفات الإنسان الجسمانية والنفسية، وتسهم في تحديد نوعية الكسب المرتبط بدرجة مشاركة الفرد والجماعة في بناء الصرح الحضاري. لذلك يصف ابن خلدون أهل الأقاليم المعتدلة بالتحضر واعتدال المزاج بينما يطلق على أهل الأطراف بعض صفات التوحش والخمول الذهني[2].

ثالثا- العامل الاقتصادي: يرجع ابن خلدون جانبا من اختلاف العمران البشري وتطوره إلى البعد الاقتصادي، ذلك أن؛ اختلاف النحل والعادات والمهن وبالتالي اختلاف بنيات العمران البشري يرتبط في بعض جوانبه بأحوال المعاش، الذي بدوره يرتبط بقيم الأعمال البشرية.

هذه بعض الجوانب فقط، التي تميط اللثام عن الرؤية الخلدونية في تفسير حركة التاريخ، ولا يدعي هذا التحليل الاكتفاء بذاته وإنما هو اجتهاد يتح المجال للبحث في الثقافة السننية عند ابن خلدون.

الخاتمة

في ختام هذا البحث وصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

أولا: أبرز البحث المكانة العلمية والمعرفية والعملية للثقافة السننية في إنضاج وإعادة بناء علم العُمران البشري عند ابن خلدون، كما أبرز مكانة ابن خلدون في التنبيه إلى فقه سنن العُمران البشري، إلى جانب فقه سنن الملك وفقه السنن الحضارية.

ثانيا: كما بين البحث مجال السنن الكونية التي تمثل المشترك الإنساني ومجال السنن التي لا يدركها إلا المؤمنون بالوحي والغيب، ومجال السنن التي تمثل الرابط بين النوعين السابقين.

ثالثا: كما أبرز البحث مكانة ابن خلدون في استثمار المعرفة والثقافة السننية التي كانت شذرات متناثرة عند سابقيه، وأعاد بناءها ضمن ثلاثة أنواع من الفقه؛ فقه سنن الملك، وفقه سنن العُمران البشري، وفقه السنن الحضارية.

رابعا: كما قام البحث باستجلاء بعض السنن التي وظفها ابن خلدون في تاريخ العبر مثل؛ سنة "ميلاد الأمم العظيمة أصلها الدين"، وسنة "اهتداء الإنسان إلى الحق يكون بالتأمل في خَلقه"، وسنة.

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن خلدون: المقدمة، م س، ص126.

2- راجع:- المصدر السابق، ص37 وما بعدها.

أبو الحسن العامري. كتاب الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق: أحمد عبد الحميد غراب، الرياض: مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، (ط1، 1408ه-1988م).

أبو حامد الغزالي. المستصفى في علم الأصول، تحقيق: أحمد زكي حماد، السعودية: دار الميمان للنشر والتوزيع، (دط، دت).

أبو عبد الله ابن الأزرق. بدائع السلك في طبائع الملك، ج1، تحقيق: علي سامي النشار، القاهرة: درا السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، (ط1، 1429ه-2008م).

أحمد الريسوني. من أعلام الفكر المقاصدي، بيروت: دار الهادي للنشر والتوزيع، (ط1، 1424ه-2003م).

الترمذي محمد بن علي. الصلاة ومقاصدها، تحقيق: حسين نصر زيدان، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1965م.

الترمذي محمد بن علي. كتاب معرفة الأسرار، تحقيق: محمد إبراهيم الجيوش، القاهرة: دار النهضة العربية، (د ط، دت).

الجويني أبو المعالي عبد المالك بن عبد الله. البرهان في أصول الفقه، ج1، تحقيق عبد العظيم الديب، قطر: د د ط، (ط1، 1399ه).

الشيخ صدوق. علل الشرائع، بيروت: دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1427ه-2006م).

الطيب برغوث: مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية (قراءة في سنن التغيير الاجتماعي) سلسلة: آفاق في الوعي السنني، ط1، دار قرطبة، الجزائر، 2004م.

عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، طبعة على نفقة ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق الهدى، المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر، القاهرة، 1930م.

القفال الشاشي الكبير. محاسن الشريعة، تحقيق كمال علتو العروسي، م ع السعودية، مطبوعات جامعة أم القرى، (ط ح، 1412ه-1992م).

محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، ط6، مركز دراسات الوحدة الوحدة العربية، بيروت، 1994م.